الفصل الحادى عشر

شعر الأنساب

تمهيد

يعد شعر الأنساب لوناً ثانياً من الشعر التعليمى لا يقل أهمية وأثراً فى تثقيف الشعب عن سالفه ، فإذا كان الأول يبشر بمقدم طلائع الفلسفة إذ يصور لنا الفكر ينمو شيئاً فشيئاً إبان بحثه عن نواميس الحياة الأخلاقية والاجتماعية ، فإن الثانى يشعرنا بمولد التاريخ وبروزه للمرة الأولى على مسرح الحياة الهيلينية يعالج تحديد النظام الزمنى ، ويحاول ربط الحاضر بالماضى ، ووصل الأبناء والأحفاد ، بالآباء والأجداد .

نشأ هذا الشعر كغيره من الأناشيد الدينية ، وبيان ذلك أنه لما كان شعر هوميروس ـ مع اشتماله على الحديث عن الماضى ـ لا يوضح لقرائه العناصر الأولى التى تكونت منها أسرة الأولمپوس التى طالما ترددت فى قصيدتيه ولا يذكر لنا منشأ أبطاله ولا إلى أى الأسر ينتسبون . وبالإجمال لما لم يكن يعنى بالتحديد الزمنى عناية تسد حاجة العقل الذى بدأ يخرج من دور السذاجة إلى دور الرقى ، فقد أحس الهيلين بالحاجة إلى صوغ أساطيرهم الدينية وقصص آلهتهم وأبطالهم فى أسلوب تاريخى منظم ، ومزجها ببعض الأفكار الفلسفية المعقولة حتى تخرج من سذاجتها الأسطورية الأولى ، فحاولوا أن يشبعوا هذه الرغبة وقاموا فى ذلك بمجهود عظيم كان شعر الأنساب مبدأ طلائعه ، ومن ثم كانت محاولة مؤلف الثيوغونيا صوغ هذه الأساطير فى سلسلة منظمة تعتبر انقلاباً خطيراً وتجديداً جريئاً ، إذ أنه أزال الفوضى وأقر النظام والترتيب بين عالم الآلهة ، وقضى على تلك التعقيدات المظلمة ، بل التناقضات المعيبة التى كانت الأساطير إلى عهده مشحونة بها حين تحدثنا ـ إلى جانب

الآلهة الحاكمين كزوس وأسرته عن آلهة آخرين قد خلعوا من عروشهم ، وانتزعت منهم سلطاتهم كأورانوس وكرونوس ، ولكن لا يدرى أحد كيف ولا متى ، وكذلك حين تذكرنا آلهة مشخصين إلى جانب آخرين لا يزيدون على أنهم معانٍ مجردة. فلما جاء هذا النوع من الشعر التعليمى الذى عنى بوضع تاريخ دوحة الآلهة وضع كل شىء فى موضعه ، وأوضح أسرار هذه المتباينات الظاهرية التى تشهد أعماقها بالترتيب المنطقى الوثيق ، والتماسك التاريخى المتين .

وأشهر قصائد هذا النوع من الشعر التعليمى قصيدة الثيوغونيا أو تاريخ الآلهة وقصيدة قائمة الأبطال .

فأما هذه الأخيرة فقد فقدت أكثريتها الغالبة ولم يبق منها إلا قطع ناقصة ونتف مشوهة ، وقد أرجع النقاد تاريخ هذه القائمة إلى القرن السابع قبل المسيح ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

أما الثيوغونيا فهى سابقة على ذلك التاريخ ، إذ قد أرجعوها إلى نهاية القرن الثامن ، وقد بقيت كاملة ولم تُعفِّها الأيام كما عفَّت القصيدة الأخرى .

(١) الثيوغونيا أو أسرة الآلهة

١ ـ وقفة تحليلية

تشبه الثيوغونيا شعر هزيودوس فى أنها موجهة إلى الريفيين ، وأنها اشتملت على كثير من نصائحهم ، وقد دفع هذا الشبه فريقاً من النقاد إلى القول بأنها كلها لهزيودوس فعزوها إليه ، ولكن الحقيقة التى يدين بها النقاد المحدثون الآن هى أن هزيودوس قد أنشأ منها جزءاً لا يستهان به .

وأياً ما كان ، فإن هذه القصيدة تتكون من ألف ومائتى بيت ، ولكن تقسيمها

ـ على النحو الذى سلكه النقاد بإزاء « الأعمال والأيام » ـ غير ممكن إلا بالنسبة إلى مقدمتها التى يتيسر فصل بعض أجزائها عن البعض الآخر فى سهولة .

ومع ذلك فمن الممكن وضع منهج واضح محدد لهذا الإحصاء الطويل الذى سُجل فيها ، تتميز به العصور المختلفة لعهود الآلهة ، وإليك هذا المنهج فى خطوطه الرئيسية أو هذا الموجز الخاطف لتلك القصيدة الجامعة .

يفتتح المؤلف درته هذه بمقدمة رشيقة تشغل مائة وخمسة عشر بيتاً يدعو فيها عرائس الشعر إلى معونته مستلهماً منهن العلم وحسن التعبير .

و بعد ذلك يحدثنا فيما بين البيت السادس عشر بعد المائة والثانى والثلاثين بعدها عن نشأة الكون فينبئنا بأنه لم يكن فى مبدأ الوجود سوى الموجودات الثلاثة : خاؤوس أى الفراغ «Chaos» وغايا أى الأرض «Gaia» و إيروس أى الحب «Eros» . فمن الخاؤوس نشأ الليل ، ومن الليل نشأ النور ، ومن غايا نشأ أورانوس أى السماء Ouranos و پُنتوس أى البحر Pontos وأما إيروس فلم ينسل شيئاً .

وفيما بين الثالث والثلاثين بعد المائة والعاشر بعد المائتين يصور لنا المؤلف ما يدعوه بالعصر الثانى أو حُكم أورانوس ، فيخبرنا بأنه من اجتماع أورانوس وغايا قد نشأ التيتانوس مثل أُكيانوس ، Okéanos وهيپِرْيون Hypérion وكريوس Krios وكوئيثوس Koios وكذلك نشأ من هذا الاجتماع كل الكلوپوس Kiklopos وفى النهاية كرونوس Kronos بيد أن هذا الأخير لا يلبث أن يثور ـ مع جميع التيتانوس ـ بوالده فيقهره و يبتره ويكرهه على أن يتخلى له عن عرش الكون .

وفيما بين البيت الحادى عشر بعد المائتين والثانى والخمسين بعد الأربعمائة يصف لنا حكم كرونوس ، ثم يرسم لنا كيف أنه مجتمعاً مع رِيا ابنة السماء و إلاهة الأرض ـ ينسل جيلاً آخر من الآلهة كزوس وهيريه وهاديس و پوسيذون .

وفيما بين البيت الثالث والخمسين بعد الأربعمائة والبيت المتمم للمائتين بعد الألف ، وهو

نهاية القصيدة يصور لنا المؤلف حكم زوس فينبئنا أنه لا يكاد ينتصر على والده و يظفر منه بعرش الكون حتى يتألب عليه جميع التيتانوس ، والكائن المزعج « تِفْيوس » فلا يلبث أن يدحرهم و ينفرد بالسلطان . ومنه ومن زوجته ومن محظيات متباينات ينشأ أپولون ، أورتيميس ، وعرائس الشعر ، وأريس ، وهرميس ، وهيفِستوس ، وديونيسوس ومن إليهم .

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الصدد هو تلك الفكرة الأساسية التى تبدو واضحة من مبدأ القصيدة إلى نهايتها كأنها الهدف الأقصى الذى يرمى إليه المؤلف ، وهى أن حكم زوس قد أنشأ فى الكون عصراً جديداً لا عهد للدنيا به من قبل ، وهو عهد النظام والعدالة ، ولا ريب أن هذه الملاحظة الدقيقة كانت بمثابة برهان قوى جديد يؤيد القول بأن الأكثرية الغالبة من هذه القصيدة هى من وضع هزيودوس لأن هذا المبدأ هو عينه الذى يسود جميع جوانب « الأعمال والأيام » والذى لايدع أية فرصة تمر به دون أن يدعو دعوة حارة متحمسة إلى الإيمان الراسخ بعدالة حكم زوس .

هذا هو الموجز الخاطف للثيوغونيا ، والآن إليك إجمالها وتحليلها فى شىء من البيان :

تتألف هذه القصيدة من عدة مقطوعات متساوية القيمة تقريباً تنشغل كل واحدة منها بفرع من دوحة الأولمپوس تروى تاريخه وتبين أصـــله ، وتتتبع تطوراته وتسرد مزاياه واختصاصاته .

يبدأ المؤلف أو المؤلفون هذه القصيدة بمقدمة عدد أبياتها مائة وخمسة عشر بيتاً كما أسلفنا ، وأول ما يلاحظه القارئ فى هذه المقدمة هو تفككها إلى حد يمكن معه تقسيمها إلى ثلاثة أقسام مختلفة لا يبعد أن يكون كل واحد منها من وضع شاعر بعينه ، فإذا تصفحنا القسم الأول ـ ويبدو أنه أقدمها ـ ألفينا المؤلف يظهر على المسرح و ينبئنا بغايته فيتحدث إلينا قائلاً :

« لنبدأ بالثناء على عرائس الشعر « الهيليكونيات » عرائس الشعر اللواتى يقطن جبل الهيليكون الإلاهى الرفيع واللواتى يرقصن بأقدام خفيفة حول النبع المظلم ، وبالقرب من هيكل ابن كرونوس القوى[1] . . . هن اللواتى ألهمن هزيودوس فى الماضى أنشودة نبيلة

(١) انظر الثيوغونيا من رقم ١ الى ٤ .

بينما كان يرعى حملانه فى سفح الهيليكون الإلاهى . أما أنا فهاك فى أية عبارة تحدثت إلى عرائس الشعر الأولمپوسيات ، بنات زوس الذى بيده الترس : « أيها الراعى غير المشذب ، والإنسان المنحط الذى لا هم له إلا الأكل . نحن نعرف أن نقول كثيراً من الأشياء الخيالية التى تشبه الحقيقة ، ولكننا نعرف أيضاً ـ حين نريد ذلك ـ كيف نصرح بالحقائق » .

هكذا تكلمت بنات زوس العظيم ، تلك الإلاهات ذوات اللهجة العذبة ، وعلى أثر ذلك منحنى كصولجان غصناً مورقاً من الغار كن قد قطعنه لساعته ، وفى الوقت عينه أنشأن بوساطة نفثاتهن الأناشيد الإلاهية لكى أشرع فى التغنى بالمستقبل والماضى ، وأمرننى أن أصوغ سلسلة الآلهة فى أناشيد ، وأن أترنم بهن أنفسهن منذ الآن وفى المستقبل دون انقطاع[1] . . . تحيتى إليكن يابنات زوس ، إننى أسألكن أن تمنحنى ما يجعلنى أروق سامعى إذا ترنمت ، وأن تمجدن معى سلسلة هذه الدوحة المقدسة للآلهة الخالدين الذين نشئوا من الأرض والسماء المزدانة بالنجوم ، والذين هم أبناء الليل المظلم ، والذين ألقت بهم أمواج البحر الملح إلى هذا العالم »[2] .

لا ريب أن القارىء يشعر إذ يقرأ هذا الجزء من المقدمة أن مؤلفها شاعر قديم اتخذ هزيودوس نموذجاً له يسير على نسقه ، ويزعم أنه كلف من قبل عرائس الشعر بوضع تاريخ الآلهة كما كانت الأساطير تروى أن هزيودوس قد كلف من قِبلهن بوضع التعاليم الأخلاقية والزراعية ، فإذا أضاف هذا الشاعر المزعوم القائمة الدينية إلى القائمتين اللتين أنتجهما هزيودوس ، فقدتم للإنسانية ما تريد من خير وسمو[3] .

---

(١) من رقم ٢٢ إلى ٣٤ .

(٢) من رقم ١٠٤ إلى ١٠٧ .

(٣) لما كانت ترجمة الأستاذ كروازيه لهذا النص مشتملة على عبارة « هن اللواتى ألهمن هزيودوس فى الماضى » وعلى عبارة « أما أنا » الخ ولما كانت هاتان العبارتان تدلان دلالة واضحة على أن مؤلف هذا القسم من مقدمة الثيوغونيا هو شاعر آخر غير هزيودوس ، فقد كان من الطبيعى أن يرى الأستاذان كروازيه وهيجير هذا الرأى ، ولكن الأساتذة : پيرون ، ومازون ، وهمبير ، وبرجن يرون أن مؤلفه هو هزيودوس نفسه ، ولا يترجمون تينك العبارتين السالفتين كما ترجمهما الأستاذ كروازيه .

غير أن شاعراً آخر جاء فيما بعد فأضاف إلى المقدمة فكرة خيالية اقتطع عناصرها من الأبيات السالفة ، ومجملها أن عرائس الشعر هن اللواتى أنشأن هذه القصيدة وجعلن يترنمن بها . وقد سجل هذا الخيال فى خاتمة ألحقها بالقصيدة ، ولكن العصور التى تعاقبت بعد هذا الشاعر نقلت هذه الخاتمة وأضافتها إلى المقدمة ، وهاك شيئاً مما جاء فيها تسجيلاً لفكرته :

« فى أعلى قمة الهيليكون كونت عرائس الشعر جوقة الرقص الرشيقة ذات الحركات النشيطة الفاتنة ، ومن هذا المكان عينه قد ارتحلن متزملات بالضباب ، واتجهن من خلال الليل مرسلات أصواتهن الساحرة فى الهواء ، وجعلن يمجدن زوس حامل الترس ، وهيريه الأبدية إلاهة أرجوس ذات الحذاء الذهبية ، وابنة زوس أثينيه ذات العينين الزرقاوين ، وفيبوس أپولون ، وأرتيميس ذات السهام السريعة[1] . . .

ها هو ذا ما كانت عرائس الشعر قاطنات الأولمپوس تترنمن به فى الليل ، عرائس الشعر التسع[2] ، بنات زوس العظيم :

« كِليُو » و « أوتِرْپيه » و « ثاليا » و « مِلْپومينيه » و « تِرْپسيخوريه » و « إيراتو » و « پولِمْنيا » و « أورانيا » و « كَلْيُوپيه » (انظر الصورتين فى الصفحة المقابلة) وهذه الأخيرة هى أنبل الجميع لأنها هى التى تتصل بالملوك الذين يحوطهم الإجلال التام والذى هو من بين الملوك منحدر من أصلاب الآلهة هو الذى تشرفه بنات زوس العظيم ،

---

(١) انظر البيت الخامس وما بعده من مقدمة الثيوغونيا .

(٢) هن الموسيه أو عرائس الشعر ، وهاك اختصاص كل واحدة منهن :

١ ــ كليو « Clio » عروس التاريخ . ٢ ــ أوتربيه « Euterpè » عروس الموسيقى والشعر الغنائى . ٣ ــ ثاليا «Thalia» عروس المهازل . ٤ ــ ملبومينيه «Melpomènè» عروس المآسى . ٥ ــ ترپسيخوريه «Terpsichorè» عروس الرقص والترنم . ٦ ــ إيراتو «Erato» عروس المراثى . ٧ ــ پولنيا «Polymnia» عروس الشعر الترنمى . ٨ ــ أورانيا «Urania» عروس الفلك . ٩ ــ كليوپيه «Calliopè» عروس الشعر الحماسى والفصاحة .

وهو الذى ينظرن إليه بحماس منذ ميلاده ويسكبن على لسانه قطرات من الندى العذب الشهى فتنساب من فمه كلمات حلوة كالشهد[١] . . . . كانت عرائس الشعر إذ ذاك يتجهن من هيليكون إلى الأولمپوس ويرسلن أصواتهن الخالدة تجلجل فى رشاقة فتردد الأرض المظلمة على بُعْدٍ أناشيدهن ويرتفع تحت أقدامهن ضجيج عذب متسق إبان اتجاههن إلى جوار والدهن ، وهذا الأخير هو الإلاه الذى يحكم فى السماء وهو سيد الرعد والصاعقة

[الصورتان ١٩ و ٢٠ مما رسم بارز ، وقد وجدتا على جانبي قاعدة أحد التماثيل من صنع پركسيتيلوس Praxitélos أعظم مثالى الهيلين على الإطلاق ، وهما فى متحف أثينا الوطنى وتمثلان ستاً من عرائس الشعر . ومن أهم ما يلحظه النقاد على هاتين الصورتين هو المقدرة الفائقة على إبراز ثنايا الرخام فى الأعضاء والملابس وإبداء الفروق بين مظاهر العرائس واختصاصاتهن] .

---

(٣) انظر الثيوغونيا من رقم ٧٥ إلى ٨٧ .

ذات البروق المزعجة ، وهو القوى الذى انتصر على والده كرونوس والذى أنزل الآلهة منازلهم وأعطى كل واحد منهم مرتبته فى عدالة وأقره فى مكانته »[١] .

يتبين من هذه الأبيات أن مؤلفها كان متصلاً بالملوك والأمراء ينثر شعره بين أيديهم وتحت أقدامهم فألجأه ذلك إلى الزلفى ، واضطره إلى اعتبار الملوك من عنصر أسمى من عناصر البشرية ، نعم إن هذا الاعتبار لم يكن غريباً فى تلك العصور ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن هزيودوس وأمثاله ممن لم تلجئهم ضرورات الحياة إلى الملق لم يكونوا فى حاجة إلى هذا النوع من الشعر كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن حياة هزيودوس .

أما الجزء الثالث من هـذه المقدمة فهو أنشودة مستقلة عن سابقتيها يبدؤها مؤلفها بالتغنى بجمال عرائس الشعر والترنم بحسن أصواتهن ، و بالسحر الذى تحدثه فى نفوس الآلهة ثم بمديح الآلهة والأبطال والعمالقة .

ويرى الأستاذ كروازيه بحق أن هذا الجزء الأخير من المقدمة كان يستعمل حينما كانت فئة الأبطال التى فقدت تنشد مع الثيوغونيا .

٢ — بدء الوجود

بعد هذه المقدمة يبدأ المؤلف قصيدته فيقدم إلينا سلسلة متسقة الحلقات تضم بين طرفيها آلهة السماء ، وآلهة المياه ، وآلهة الأرض ، وآلهة الجبال ، وآلهة الماضى ، وآلهة الحاضر . وبالإجمال آلهة جميع الأزمان والأمكنة على طول الدهور وسعة المسافات . والآن إليك كيف يبدأ سلسلة هذه الدوحة الإلاهية ويسير فيها على نسقه المنظم المتزن .

فى مبدأ الكون كان ثلاثة موجودات لم يتجاوز الفكر الهيلينى حدودهم ولم يذهب إلى ماهو أبعد منهم لأنهم أوائل الكائنات جميعها وهم : خاؤوس[٢] أو الفراغ ، وغايا أو الأرض ، وإيروس أو الحب .

---

(١) أنظر الثيوغونيا من رقم ٦٨ إلى ٧٤ . ومن الطبيعى أن ترى الترتيب هنا مقلوباً ما دام أن أحد الشعراء القدماء قد نقل خاتمة المقدمة من موضعها وأقحمها فى وسطها كما أشرنا إلى ذلك .

(٢) الخاؤوس هو فيما ترى المعاجم خليط أولى من جميع عناصر الحياة ، وهو أساس وجود الكون . وفى رأى بعض الاصطلاحيين من المتفلسفة هو المادة قبل تصورها أى الهيولى ، وفى رأى البعض الآخر هو الفضاء أو الخلاء .

فأما خاؤوس ، فهو لم ينجب إلا إبان وقت قصير ، ولذا لم ينسل إلا الليل الذى أنسل النور ، وأما الحب فهو لم ينجب أصلا ، وإنما غايًا هى الوفيرة الإخصاب والعظيمة الإنجاب . ومن إنجابها وإنجاب خاؤوس ينشأ العالم الخارجى فتتألف الكتل الأرضية ، وينبلج « نِكْس » أى النور من « إريبوس » أى الظلام . ويمتد « أورانوس » أى السماء فوق الجبال الناشئة ويستريح « بُنتوس » أى البحر فى مستقره العميق .

وإذ ذاك تبتدئ السلسلة الهائلة التى تؤلف حلقاتها الكون ، فينشأ من اجتماع أورانوس وغايًا التيتانوس والكلوبوس والهيكاتُنخيروس ، وكلهم من العالقة أو من الكائنات البشعة المرعبة ، وبعد ذلك يروى لنا المؤلف قصة ثورة التيتانوس ضد والدهم ، فيحدثنا أن التيتانوس كانوا أكثر جميع الأطفال الذين ولدوا من اجتماع غايًا وأورانوس فظاعة ، وقد مقتهم والدهم ، فكان لا يكاد أحدهم يجىء إلى العالم حتى يسرقه وينتزعه من عالم النور ويخفيه فى بطن غايًا العميق . وكان يستمتع بفعله القاسى ، وفى أثناء ذلك كانت غايًا العظيمة تئن معذبة من فداحة الحمل الذى بين أحشائها ، فدبرت حيلة منافقة خبيثة ، فأنتجت معدنًا صلبًا لامعًا وصنعت منه منجلاً كبيرا ، وباحت بمشروعها لأولادها وقالت لهم وهى مفعمة بالغضب لتشجعهم : « ياأولادى ويا أبناء والد قاسٍ استمعوا إلى نصائحى فسننتقم منه لأفعاله الرديئة ، لأنه هو الذى بدأ بالسوء » هكذا تكلمت ، وكان الجميع يضطربون فلم يجرؤ أى واحد منهم على الحديث ، وكان كرونوس العظيم ذو العقل المحتال والملىء بالشجاعة هو وحده الذى أجاب أمه المحترمة قائلا : « أماه ! سأكون أنا ـ وأتعهد بذلك ـ الذى سينفذ ماتبيتينه ، فليس لدى أى اعتبار نحو والد غير جدير بهذا الاسم ، لأنه هو الذى بدأ بالشر » . على هذا النحو تكلم كرونوس فاغتبطت غايًا العظيمة فى قلبها وأمرته أن يكمن لأبيه ، ووضعت فى يده المنجل القاطع ، وأعدت للنجاح كل شىء[1] » .

وبعد هذا النص يروى لنا المؤلف فى إيجاز نتيجة هذه المؤامرة وهى جب كرونوس عضو التناسل من والده . وعلى أثر ذلك يسرد لنا أسماء التيتانوس ، وهم «أكيانوس المحيط»

---

(٢) انظر الأبيات من رقم ١٥٤ إلى ١٧٥ من الثيوغونيا .

و « إبيريون » و « كريوس » و « كويوس » و « ياپيتوس » و « كرونوس » وهذا الأخير هو أهم إخوته وأعظمهم خطراً ، إذ هو الذى سينسل كل آلهة الهيلين العظماء الذين تموج بهم الأساطير .

ولا تكاد أسرة كرونوس تأخذ مكانها على مسرح الوجود حتى يتبدل فى بيئة الآلهة كل شىء ، فيخلف الآلهة البدائيين الذين لم يكن لهم حتى الآن هيا كل ، ولم تكن الضحايا والقرابين تقدم إليهم ، ولا الأدعية تصعد نحوهم ، ولا الطقوس تقام تمجيداً لأسمائهم ، آلهة آخرون يستمتعون من الشعب الهيلينى بكل تلك العقائد والتقاليد ، ولكن مؤلفنا لايكاد يذكر عن ذلك شيئاً ، لأن بغيته هى تعقب أسرة الآلهة جيلا بعد جيل .

يروى لنا بعد ذلك أن كرونوس يطغى فيسجن جميع الكِكْلوپوس والهيكاتُنْخيروس فى الظلام ، ولايبقى من إخوته فى عالم النور إلا التيتانوس ثم يسجن أولاده إلا زوس تنقذه والدته « رِهْيا » وتنشئه فى جزيرة كريت على غير علم من والده ، وإذ يترعرع ويشتد ساعده يتمرد على والده فيخلص أخويه : «هاديس» و «پوسيذون» ثم يحرر الكِكْلوپوس فيقدمون إليه ـ اعترافاً بجميله ـ الصاعقة التى بفضلها ينتصر على والده ويسلبه السلطان ويبسط سيادته على العالم .

غير أنه لا يكاد يحرز هذه السيادة حتى يهب أربعة من التيتانوس هم : « أتلاس » و « مينوئتيوس » و « پرومثيوس » و « إپيمثيوس » أولاد « ياپيتوس » فيثوروا به ويعلنوا له العداء فلا يسعه إلا أن يسلط عليهم عقابه الشديد ، ولكن المؤلف ينبئنا أن هنا حادثين أساسيين هما اللذان ثبتا عرش زوس وقضيا على جميع الفتن والدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك حوله : الأول حادث ثورة جميع التيتانوس أولاد أورانوس وأنسالهم ، تلك الثورة التى انتهت بسحقهم جميعا . والثانى حادث إبادة العملاق البشع تيفوؤوس ، ولايحدثنا المؤلف عن السبب الذى تشتعل من أجله ثورة هؤلاء التيتانوس ، ولا يصف لنا الحوادث التى تقع فى السنين العشر الأول من هذه الحرب ، وإنما هو يصور لنا زوس فى السنة العاشرة

منها يخلص الهيكاتُنْخيروس الثلاثة الذين أسرهم كرونوس وهم : « بَرْيَرْيوس » و« كوتوس » و « جيجيس » أولئك العمالقة الذين لكل واحد منهم مائة ذراع وخمسون رأسا . وهنا تعقد بينهم و بين زوس معاهدة يشتعل على أثرها لهيب المعركة الحاسمة التى يساهم فيها هو شخصياً فيرسل الصاعقة من فوق قمة الأولمپوس تهز كل شىء وتحدث فى الكون اضطراباً عاماً تكون نتيجته إتمام النصر له ولحلفائه وتكبيل التيتانوس و إلقاءهم فى أعمق طبقات الجحيم . وهاك مايصور به المؤلف هذه المعركة الهائلة :

« كان الجميع فى ذلك اليوم يهتفون بالحرب : الآلهة والإلاهات وأبناء كرونوس ، وأولئك المحاربون الشامخو الأنوف غير القابلين للانهزام ذوو القوة الهائلة الذين أتى بهم زوس من أعماق « إيريبوس » ومن هُوَى الأرض . كانت مائة ذراع تبرز من كتفى كل واحد منهم ، وخمسون رأساً ترتفع من فوق أعضائه القوية ، وقد وقف كل أولئك مسلحين

[الصورة رقم ٢١ هى رسم بارز ، وقد وجدت فى حفائر مدينة پرغاما بآسيا الصغرى ، وهى تمثل تلك المعمعة الحربية التى اختلط حابلها بنابلها فى معركة العمالقة التى عرف مؤلف الثيوغونيا كيف يصورها أبدع تصوير]

بعظائم الصخور فى وجه التيتانوس الذين كانت فيالقهم ملتحمة متماسكة ، وكانت غاية الفريقين هى إظهار ماتستطيعه قوة أذرعتهم . و إنهم لكذلك إذ البحر الهائل والأرض

الواسعة يُجلجلان فجأة بضجيج مرعب ، والسماء تضطرب وتئن والأولمپوس الرفيع يهتز من أساسه حينما يصطدم الآلهة ، بل إن ضجيج التصادم المروع والضربات العنيفة يخترق أعماق الترتاروس المظلم .

كانت الرجوم القاضية تتطاير من كل جانب ، وكانت أصوات الفريقين المتحمسين للمعركة تصطك بالسماء ذات النجوم ، وكانت الصرخات الهائلة تصعد من ميدان القتال ، ولم يكبت زوس وقتاً طويلا الغضب الحربى الذى كانت نفسه مليئة به ، فلم يلبث أن أظهر كل قوته وقذف بالرعد من قمة الأولمپوس ، من أعلى السماء ، فكانت الصواعق الملتهبة تتقاطر بضجيجها دون انقطاع من يده التى لا يعتورها العناء ، وكانت الأرض الخصبة تحترق مرتعدة ، والغابات الواسعة تتفجر ، وكان كل شىء يغلى : الأرض كلها ، والبحر الهائل ، فينتشر حول التيتانوس بخار خانق وهواء ملتهب ثم يبهر لمعان الصاعقة أعينهم الجريئة ويعميها ويمتد الحريق حتى يصل إلى الخاؤوس ، وكانت الأرض والسماء ـ فيما ترى الأعين وتسمع الآذان ـ كأنهما تمتزجان ، إحداهما تهتز فوق قاعدتها ، والأخرى تهوى من عليائها .

..... استمر القتال زمناً طويلاً بحرارة عنودة ، لكن « كوتوس »و« بريريوس » و « جيجيس » قد قاموا فى الصف الأول بمعركة مزعجة ، فكانت ثلثمائة صخرة تلقى مرة واحدة بأذرعتهم القوية بدون انقطاع على التيتانوس وتخفيهم كسحابة مظلمة . وفى النهاية قهروهم رغم شجاعتهم المتعجرفة ، وكبلوهم بأغلال قاسية ، وأرسلوهم إلى أعمق طبقات الأرض.

..... هناك فى ظلام سميك وفى وسط بخار خبيث الرائحة ، وفى آخر حدود العالم دفن التيتانوس بأمر مليك السماوات[1] » .

بيد أن زوس لا يكاد يقضى على هذه الثورة وينعم بالهدوء حتى تنفجر ضده ثورة أخرى تعرض عرشه وذاته للخطر أكثر من الأولى . ومجملها أن غايًا تنجب عملاقاً بشعاً مزعجاً وهو « تيفوؤوس[2] » فلا يكاد يبرز إلى الحياة حتى يتمرد على زوس ، فيبادر هذا

---

(١) رقم ٦٦٦ وما بعده .

(٢) تيفوؤوس ، هو منشئ الرياح المشئومة .

الأخير إلى إخضاعه ثم إلى إبادته . وبهذين الانتصارين يتثبت سلطان زوس ويرسخ عرشه، ويقبض على نواصى الأمور فى الكون كله بيد من حديد .

وبعد هذا يقص علينا المؤلف كيف نشأ سكان الأولمپوس الحاليون فينبئنا بأن زوس يجتمع على التعاقب مع « ميتيس » ، Mètis ثم ثيميس Thèmis بنة أورانوس وهى إلاهة العدالة التى تزن كل كبيرة وصغيرة بالقسطاس المستقيم (انظر الصورة رقم ٢٢ فى صفحة ٢٠٦) ثم مع أوريئوميه «Eurynomè» ثم ديمتير «Deméter» إلاهة الزراعة وهى ابنة كرونوس أنجبها من رِيا ثم مع منيموسينيه «Mnémosynè» إلاهة الذاكرة ، وهى ابنة أورانوس وشقيقة ثيميس إلاهة العدالة الآنف ذكرها ثم مع ليتُو «Leto» ابنة التيتانوس كويُّوس وأخيراً هيريه بنة كرونوس فينجب منهن إلاهات الفصول الأربع ، وإلاهات الآجال الثلاث[١] ، وهن كُلُوتو «clotho» ولاخيسيس «Lachésès» وأتروپوس «Atropos» وإلاهات الرشاقة الثلاث ، وهن : أغلائيه Aglaé وثالِيَّا Thalia وأُفروسينيه Euphrosinè . وبِرْسيفُنْيا[٢] Perséphonè والموسيه Les Muses أى عرائس الشعر التسع[٣] اللواتى أسلفنا الحديث عنهن . وأپولُون[٤] ، وأرتيميس[٥] ، وهيبيه[٦] Hébè وأريس[٧] Arès وإيليثيه ، وفيما عدا ذلك فإن زوس ينجب وحده پالاس أثينيه ، إذ تجىء هذه الأخيرة إلى عالم النور بطريقة غير طبيعية تفتح رأس أبيها وتخرج منه مدججة بسلاح الأزلية والأبدية، وإنما تشاء الأساطير الهيلينية أن تخرج أثينيه من رأس أبيها لتشير إلى أن منشأها وهو الدماغ هو مكان الحكمة ومأوى التعقل والذكاء ، وكذلك هيريه تنجب وحدها هيفستوس[٨] .

---

(١) هن ثلاث أخوات وكل إليهن تحديد الآجال البشرية بوساطة نسيج رمزى ، فالأولى وهى « كلوتو » تتولى غزل الحياة ، والثانية وهى « لاخيسيس » تقوم بنسجها ، والثالثة وهى « أتروپوس » تقطع خيوطها.

(٢) پيرسيفنيا أنجبها زوس من ديمتير .

(٣) أنجبهن من منيموسينيه ، وقد سبق الحديث عن اختصاص كل منهن .

(٤) إلاه الشمس والفنون الجميلة .

(٥) أرتيميس إلاهة القمر والصيد وقد أنجبها زوس هى وشقيقها أپولون من ليتو .

(٦) هيبيه هى إلاهة الشباب .

(٧) أريس إلاه الحرب ، وقد أنجبه هو وشقيقتيه من هيريه .

(٨) هيفستوس هو إلاه الحدادة وهو غاية فى الدمامة والقبح وتشوه الخلقة .

[الصورة رقم ٢٢ مأخوذة عن تمثال موجود فى المتحف الوطنى بأثينا ، وهو من صنع المثال الهيلينى خير ستراتوس الذى عاش فى القرن الثالث قبل المسيح، وتمثل ثيميس إلاهة العدالة]

إلى هنا ـ فيما يظهر ـ تنتهى القصيدة البدائية وتبدأ المائة بيت الأخيرة المنتحلة ، والتى تنبه إلى انتحالها نقاد الإسكندرية فجحدوا صدور بعضها عن مؤلف الثيوغونيا والتى تسرد لنا تاريخاً مظلماً مختلطاً وتحدثنا عن بعض البشريات اللواتى افتتن بهن الآلهة كالنساء الآتية أسماؤهن (ا) « سيميليه Sémélè بنة كَدْموس ملك ثيبا التى يكلف بها زوس فينجب منها ديونيسوس Dionysos إلاه الخمر (ب) ألكيمينيه Alcménè زوجة أنفتريون ملك ثيبا و يعشقها زوس أيضاً فتلد له « هيركليس » Héraclès (حـ) « أريانيه » Arianè ابنة مينوس ملك كريت (ء) مِدْيا Mèdéa الساحرة . وأخيراً يختتم المؤلف قصيدته بقائمة يسرد فيها أسماء الإلاهات اللواتى يجتمعن برجال من البشر فينجبن منهم أبطال الهيلين ، فيشعرنا بأنه قد بدأ يترك سلسلة الأولمبوس لينشغل بتاريخ الأناسى .

٣ ـ كيف تكونت الثيوغونيا :

أسلفنا أن نسبة مقدمة الثيوغونيا موضع ريبة شديدة دار حولها جدل عنيف بين النقاد أما القصيدة نفسها فإن الذى نستطيع أن نقرره بإزائها بعد هذه الطوفة العاجلة التى طفناها بها معك هو أنها ـ إذا استثنينا المائة بيت الأخيرة و بعض منتحلات أو استشهادات أخرى ـ لمؤلف واحد ، لأن الوحدة والتماسك يسودانها تمام السيادة كما هو الشأن فى كل سفر يؤلفه كاتب أو شاعر واحد ، ويضع نصب عينيه غاية معينة يشملها بعنايته من أول الكتاب إلى آخره .

وفى الحق أن إجماع النقاد المحدثين يكاد ينعقد على أن أكثريتها الغالبة هى لهزيودوس و إن كان ذلك لا يمنع من اشتمالها على انتحالات ذات بال ، ومن أن بها عدداً غير قليل من الأبيات قد زج به بين مقطوعاتها زجاً دون أية صلة تربطه بما قبله أو مابعده ، وأكثر من ذلك أن بعض الباحثين قد انتهوا إلى الإيقان بأن طائفة من شعر هوميروس نفسه قد أقحمت بين أبياتها إقحاماً ولم يستبعدوا أن يكون ذلك من قِبَلِ أولئك المقحمين على سبيل الاستشهاد

أو التشبيه دون أى قصد إلى الانتحال أو تزييف الحقائق التاريخية . ولعل من هذا ماأورده المؤلف بعد وصفه خيميرا Chimœra إذ ينقل لنا من الإلياذة فى تصوير هذا الكائن المزعج ما نصه :

« إن له مقدم أسد ومؤخرتنين ووسط معز ، وهو يقىء زوابع من اللهب[1] » .

ومع هذا كله ، أو رغم هذا كله ، فإن النقاد المحدثين يعزون القصيدة إلى مؤلف القسم البدائى من المقدمة ويرجحون أن هذا المؤلف هو هزيودوس كما أشرنا إلى ذلك . وهم يعتمدون فى حكمهم هذا على تلك الروابط المتينة التى تصل أجزاء القصيدة وصلا محكما وعلى ذلك التتابع المنطقى الذى يجتازها من مبدئها إلى منتهاها ، وعلى الصنعة والأسلوب اللذين يجعلان الشبه بينها و بين « الأعمال والأيام » قوياً متماسكا .

على أن أولئك النقاد يستثنون من هذا الحكم المائة بيت الأخيرة التى تتميز بطابع أكثر جدة وتأخراً فى الزمن عن بقية القصيدة .

و يرى الأستاذ كرواز يه أن هذه القصيدة قد اشتملت على منتحلات أخرى غير المائة بيت المشار إليها كمنظر تدخل زوس فى حرب الهيكاتُنْخيروس والتيتانوس الذى لا يظهر له — فيما يرى هذا الأستاذ — أى أثر عملى كبير فى مصير تلك الحرب ، وإنما أضافه مؤلفه لينتقد به موقف زوس الذى رأى أنه مخجل بسبب عدم مقدرته على الخروج من الورطة بمجهوده الشخصى ، فأراد أن يجعل دور الصاعقة ذا أثر فعال فى المعركة . ومن هذه المناظر المنتحلة — فيما يرى أيضا — منظر سجن التيتانوس فى مكان لا اسم له يسهب الشاعر المتأخر فى وصفه ، و ينسى أن القصيدة نفسها قد نصت على أن التيتانوس قد سجنوا فى الترتاروس ، وليس ذلك عجيبا ، فهذا الناحل كغيره من ناحلى بعض أناشيد الإلياذة والأوديسا الذين كانوا يأتون فى منتحلاتهم بما يناقض القصيدة البدائية ، لأنهم نسوا محتوياتها ، أو لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء استيعاب مافيها كما أشرنا إلى ذلك فى مواضعه مرارا .

---

(١) انظر البيتين ١٨١ و ١٨٢ من الأنشودة السادسة من الإلياذة .

ومما لا ينبغى إهماله هنا أن نثبت أن المؤلف مدين بهذا التتابع المتين المنظم لذلك القانون الوحيد الذى هو عين النظام الزمنى والذى يقتاد ويرتب ـ دون أدنى ضعف ولا تخاذل ـ ذلك الإحصاء الهائل الذى يشمل دوحة الآلهة ، فالمؤلف ينتقل بنا من عهد إلى عهد مبتدئاً دائماً من أكبر أفراد كل طبقة منتبياً إلى أصغرهم ، وعندما يفرغ من إحصاء إخوة الطبقة الواحدة يعود إلى كل فرد منهم باعتباره رئيساً لأسرته الخاصة فيحصى نسله ثم يتجه إلى من يليه من طبقته ، وهكذا يمر بشراذم عدة من الآلهة دون أدنى اختلاط أو اضطراب ، فإذا سايرناه فى خطته ـ ولا مناص لنا من ذلك ـ ألفيناه ينحدر من الأجداد والآباء إلى الأبناء والأحفاد انحداراً طبيعياً لا بأس به ، وهو فى ذلك لا يبالى أن يعيد اسم الإلاه عدة مرات ، فيذكره ابناً فزوجاً فوالداً فجدًّا ، وسر ذلك أنه كان يهدف إلى وضع قائمة دقيقة مضبوطة بأسماء الآلهة وبيان منشأ كل منهم وصلته البنوية أو الأبوية أو الأخوية أوالزوجية بغيره من أفراد أسرة الأولمپوس ، وهو فى كل هذا يحترم الترتيب الزمنى ، ويخضع لتتابع العصور ، فنجم عن ذلك المنهج أن جاءت قصيدته قائمة بأسماء يتلو بعضها بعضاً ، وأسر يخلف طارفها تليدها ، وندرت فيها القصص المسهبة والروايات المطنبة .

وإذا كان من حقنا أن نعنى بتحليل كل مؤلف وباستكناه منزلته الأدبية من خلال منتجاته ، فقد وجب أن نجزم بأن مؤلف الثيوغونيا كان رجلاً بسيطاً متمسكاً بالتقاليد ، متقيداً بالتراث الموروث ، وأنه ليس من أولئك الشعراء الذى يحلقون فى أجواء الأخيلة والأحلام ، ويرمون إلى إنشاء شعر براق يفتن ظاهره وتخلو أعماقه من المعارف ، وإنما هو من أولئك الذين ينعطفون بالفطرة نحو إرضاء الحقيقة بقدر المستطاع . ومن ثم نحن نشاهد الشاعر فى أغلب الأحيان يختفى وراء المُحْصِى الذى لا يعنى إلا بالرتب والأرقام ، ومع ذلك هو لا يهوى فى أحبولة جفاف الحاسبين والمرقمين إلا نادراً . ومن أبرز مواهبه أنه يعرف كيف يطبع كل إلاه بالطابع الذى يميزه عن غيره تمييزاً دقيقاً ، والذى هو منتزع من

الأسطورة الخاصة بهذا الإلاه ، أو ينعته بنعت من تلك النعوت التقليدية التى لازمته منذ عهد الأناشيد البدائية .

على أن هذا ليس معناه أن شاعرنا كان مجدب الخيال ، وإنما هو على العكس من ذلك كان كثيراً ما يسلم نفسه إلى إلهاماته العالية فيصوغ بعض الأحداث الأسطورية صياغة تكاد ترتفع إلى صف جوهرتى هوميروس .

ومن الخصائص المميزة لمؤلف الثيوغونيا أنه يمقت النساء ويحتقرهن ويوجس منهن خيفة فى كل خطوة من خطوات حياته ويتوقع من عشرتهن كل شر وسوء . ومن آيات ذلك أنه ـ بعد ما يروى لنا أسطورة بندوريه على النحو الذى هى عليه فى قصيدة « الأعمال والأيام » ـ يعقب عليها بقوله :

« إن أرومة النساء المخصبة قد انحدرت من بندوريه ، نعم إن هذا العنصر المشئوم قد نشأ منها ! وإن النساء هن ذلك الوباء القاسى الذى يقيم مع الرجال ، النساء اللواتى لا يساهمن فى احتمال الفاقة ، بل هن يسرعن إلى المساهمة فى الثراء . . . على نحو ما تفعل ذكران النحل التى تَطْعَمُ من ثمار إناثها ولا تنتج إلا شراً . وبينما تكد إناث النحل طول النهار وتكدح فى نشاط متواصل لتكوين أقراص الشهد ، نرى ذكرانها لا تكاد تبدى حراكاً ولا تغادر خلياتها المتوجة بالسُّقُف ، وكل عملها ينحصر فى أنها تزدرد فى بطونها إنتاج الغير ؛ على هذا النحو نفسه نكبَ زوس الْمُجَلْجِلُ فى الجو ، الرجالَ بوباء النساء . . . نعم إن المرء الذى يفر من الزواج وينجو بنفسه من سماجة صحبة النساء ، ويرفض أن يتخذ له زوجة ويصل إلى الشيخوخة المحتومة ، يعيش محروماً نعمة العناية الضرورية ، ولكن الذى يذعن لمصير الزواج ويظفر بامرأة مفعمة بالطهر والحكمة يجد الشر عنده معادلاً للخير سواء بسواء . أما الرجل الذى يصطدم بزوجة فاجرة فإنه يحمل فى قلبه مدى حياته أحزاناً لا تتناهى[1] » .

وبهذه المناسبة ينبغى أن نشير هنا إلى أن الأستاذ پيرون ـ وهو أحد الذين يعزون

---

(١) انظر رقم ٥٠٩ وما بعده من الثيوغونيا .

الثيوغونيا إلى هزيودوس ـ يتخذ من هذا النص السالف برهاناً يؤيده فى دعواه ، إذ يجزم بأن وحدة مؤلَّف « الأعمال والأيام » و « الثيوغونيا » لا تبدو جلية فى أى موقف آخر على النحو الذى تبدو عليه بإزاء تصوير المرأة فى القصيدتين ، فكما يرينا المؤلف صورتها فى « الثيوغونيا » قاتمة بغيضة ، هو يطلعنا عليها فى « الأعمال والأيام » رهيبة مزعجة ، إذ بعد أن يحدث شقيقه پرسيس عن أسطورة پندوريه ، ينصح له فى عدة مواضع أن يأخذ حذره من النساء اللواتى يشتهين ماله أكثر مما يأبهن لقلبه ، وهو ينصح له كذلك أن يحتاط أشد الاحتياط فى زواجه فيقول :

« إختبر بانتباه قبل أن تختار حتى لا يجعلك زواجك أضحوكة لجيرانك ، فإذا لم يكن للرجل من كل ما يظفر به خيراً من زوجة فاضلة لم يكن عليه كذلك نكبة أفدح من زوجة فاسدة . . . إذ أن هذه الأخيرة تستطيع ـ بدون نار ـ أن تستهلك زوجها وتدفع به إلى الشيخوخة القاسية قبل الأوان[1] » .

٤ ـ القيمة الأدبية لهذه القصيدة :

تمتاز هذه القصيدة بلون من الجمال الجدى الذى ينتقش أثره فى النفوس بهيئة قاسية تطبعها بطابعه وتقهرها على إدامة التفكير فيه . وقد فطن الهيلين إلى هذا الجمال وأدركوا أسراره وخفاياه وعرفوا رموزه ومراميه ، ولكن الرومان قد غفلوا عنه وقصرت عقولهم العملية عن إدراكه ، وعجزت قلوبهم التى تعيش على الأرض وترتبط بالمادة عن فهمه أو استساغته . ويرى الأستاذ كروازيه أن المحدثين هم أقل من الرومان تذوقاً لهذا اللون من الجمال وأعجز منهم عن فهمه ، ولكنه يرى أن العدالة تتطلب منا أن نعترف بأن هذه الأسماء التى هى عندنا مملة أولا دلالة لها ، وما كان يحوطها من خيال فاتن ونظام بديع ، والنعوت التى كان الشعر يصوغها لأولئك الآلهة كانت تسحر بانسجامها تلك القلوب النقية النبيلة . وإليك نموذجاً من هذه النعوت الساحرة :

(١) انظر رقم ٦٩٩ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

« دُوريس ، و ، پانوپيه ، و ، غالاتيا الفاتنة ، و ، هيپوثوئيه ، العذراء المحبة ، و ، هيپونوئيه ذات الذراعين الورديتين ، و ، كيمودوكيه التى تهدىء الأمواج وتسكن صفير الهواء القوى فوق البحر المظلم بالسحب مع أختها « كيماتوليجيه » ومع « أنفِتْريتيه[1] » ذات القدمين الجميلتين[2]

هناك داع آخر وجد عند الهيلين فحملهم على تذوق هذه الأساطير وغاب عنا ، فسلبتنا غيبته هذه اللذة ، وهو أن كل اسم من هذه الأسمـاء ، أو نعت من تلك النعوت ، أو اختصاص من هاتيك الاختصاصات المعزوة إلى الآلهة كان له عند كل فرد منهم ذكريات عذبة أو أليمة ، لارتباطه بحادثة سعادة أو شقاء له أو لابنه أو لأبيه أو لجده . وفوق ذلك فإنها كانت تشتمل على شرح كثير من أسرار الحياة الواقعية التى كثيراً ما يلتقى بها فى شبابه وشيخوخته ، فى منزله وحقله ، فى متجره ومصنعه ، بين زوجه وأولاده ، بين أصدقائه وأعدائه ، بين رؤسائه ومرءوسيه التقاء عمليـاً جديراً بأن يـكون له فى هذا التذوق أثر فعال . بيد أن هذه الحلول التى كانت الأساطير تحملها من الماضى إلى الحاضر ، كانت تارة خفية غامضة ، وأخرى سهلة واضحة للعيان ، فـكان الخاصة يدركون الأولى و يفتنون بها ، والعامة ينبهرون بالثانية و يعضون عليها بالنواجذ ، وهاك نموذجاً من النوع الثانى :

« إن الليل قد أنجب الحظ السيىء والموت البشع ، وأنجب النوم وأسرة الأحلام ، هاهو ذا ما أنجبه الليل الحالك دون أن يجتمع بأحد ، وفى البطن[3] الثانى أنجب للعالم الألم القاسى ، والهسپيريذيس اللواتى يسهرن من وراء المحيط على حراسة التفاح الذهبى والأشجار التى تحمله ، والنيميسيس[4] التى هى بـلاء بنى الإنسان ولدت أيضاً من الليل المشئوم ، و بعدها ولدت الخدعة والشهوة الحسية ، والشيخوخة المؤذية والشقاق (إيريس) ذات القلب القاسى »[5] .

---

(١) أنتريتيه هى إحدى بنات البحر وستصير زوجة لپوسيذون فيما بعد .
(٢) انظر رقم ٢٥٠ وما بعده من الثيوغونيا .
(٣) ينبغى أن نلاحظ هنا أن الليل فى اللغة الهيلينية مؤنث يحمل ويضع .
(٤) نيميسيس هى إلاهة الانتقام .
(٥) انظر رقم ٢١١ وما بعده من الثيوغونيا .

فى الحق أن هذا الخيال يصور الحياة البشرية أبدع تصوير حين يتتبع الأمراض والآلام والشيخوخة ونكبات الحياة و بلاياها وشهواتها وشرورها ومفاسدها ، فيلقى أصولها كلها غامضة مبهمة ولا يجد أكثر غموضاً من الليل المظلم فيلحقها به و يجعله أصلاً لها ، فيكون ذلك منه بمثابة تصريح بأن ما تموج به الحياة من مظاهر وحوادث ، ونكبات وكوارث ، وأمراض و بلايا ، ومحن ورزايا ، تبدأ كلها فى سلاسل ، أطرافها الأولى تتصل ببنى الإنسان ، وحلقاتها الأخيرة تغيب فى ظلام قاتم لا يدرى أحد مداه ، ولا يدرك منتهاه .

بقيت هنا فكرة ينبغى أن نشير إليها قبل مغادرتنا هذا الفصل ، وهى احتواء الثيوغونيا على قبس صغير من أضواء المبادىء الفلسفية العالية التى سيكون لها فيما بعد شأن عظيم .

نعم إن شاعرنا لا يعرض فى قصيدته للفلسفة بمعناها الفنى من قريب أو من بعيد ، بل لعله لم يفكر فى ذلك ألبتة ، و إنما هذه المبادىء قد وجدت فيها بطريقة آلية اقتضتها طبيعة هذا النوع من الشعر ، و بيان ذلك أن المؤلف لما جمع كل الأساطير والخرافات المعروفة منذ أقدم العصور إلى العصر الذى عاش فيه ، ثم كدسها فى ذاكرته وسلط عليها عقليته الممتازة ، فجعلت توازن بينها وتصدر عليها حكمها ثم تنتقى أنفسَها وأسماها . وأخيراً تكل تلك المنتقيات إلى ذلك الخيال الخصب ليعمل فيها عمله ، فيثمر هذه الثمرة الملحوظة ، وهى ترتيب ما اختاره من ذلك الخليط وتنضيده والعمل على وضعه فى سلسلة متسقة الحلقات ليصل من وراء ذلك إلى الوحدة المطلقة . ولا ريب أن هذه فكرة فلسفية لا يستهان بها لأن الاتجاه إلى الاتساق والوحدة هو نفس السير نحو الغاية العليا المحددة التى رمت إليها الفلسفة منذ طليعتها الأولى .

وفوق ذلك فإنه يوجد وراء هذا الخضم الهائل من الأساطير هدف أساسى غير قابل للجحود ، وهو بدء الكون ، و إن كان قد قام حوله سياج سميك من هذا الشعر الخرافى

الذى لا يسمح لنظرات العقل أن تجتازه إلى الحكمة العالية الكامنة فى داخله . وإذا سايرنا الفلاسفة هنا فى تعبيراتهم استطعنا أن نقول إن فى قصيدة الثيوغونيا فلسفة بالقوة تتحول إلى فلسفة بالفعل عندما تتهيأ لها الظروف الملائمة منذ عهد ثاليس الملطى ومن أتوا بعده من أعلام فلاسفة الهيلين .

(ب) قائمة الأبطال

لم تكن هذه القائمة تقل أهمية ولا تصغر فى قيمتها الأدبية عن الثيوغونيا لأن مؤلفها قد عرف كيف يسمو بنفسه و بقرائه عن التعصبات الموضعية التى تنحط بصاحبها إلى التحيز ، فنظر إلى جميع الأبطال نظرة عادلة نزيهة ولم يسمح للعاطفة بأن تقود قلمه مرة واحدة ، فعرف كيف يجعل قصيدته فى مأمن ممن العصبية التى ليس أعدى منها للعلم ، ولا أخطر على الحق ، ولا أشأم على التاريخ ، واستطاع بهذه الخطة أن يقهر قدماء النقاد ومحدثيهم على احترامه .

غير أن هذه القصيدة ـ مع الأسف الشديد ـ قد فقد أكثرها ولم يبق منها غير حوالى مائة شذرة مبتورة لا تشبع نهم الباحث ، ولا تنقع غلة الناقد ، بل قل : إنها لا تمكن القارئ العادى من تتبع القائمة ولو تتبعا سطحياً .

يسير مؤلف هذه القصيدة على نفس النهج الذى سار عليه مؤلف الثيوغونيا فيسلك مع الأبطال خطة سالفه مع الآلهة ، فيتعقبهم أطفالاً وأزواجاً وآباء .

ومما يلفت النظر فى هذه القائمة تلك الحظوة الفائقة التى اختص المؤلف بها الجنس اللطيف فى قصيدته إلى حد أن جعل القدماء يطلقون عليها اسم قائمة النساء . ولقد بلغت عناية هذه القائمة بالنساء من الشهرة مبلغاً حمل پوسَنْياس على أن يدعوها بالدمية لاشتمالها على الدميات البشريات . ويحدثنا مَكْسيموس التيرى ـ وهو من الذين يعزون هذه القائمة

إلى هزيودوس ـ أن مؤلفهـا قد عول على أن يسرد أرومات أبطاله مبتدئاً بأمهاتهم ، أى أنه كان يسلك فى أنسابه نهج السلسلة الأموية ، لأنها أكثر ثباتاً وأدخل فى باب اليقين من السلسلة الأبوية . ولعل حرصه على الحقيقة واضطرابه من خشية الوقوع فى الباطل أو الزيف هما اللذان حملاه على سلوك هذه الخطة .

يبدأ المؤلف قصيدته بالحديث عن بندوريه التى هى عنده زوجة پرومثيوس فيروى لنا أنها هى مبدأ العنصر الهيلينى إذ تنجب « دوكَلْيون » الذى ينجب بدوره « هيلين » الجد الأعلى للأمة الهيلينية كافة[1] ، ولـكن هذا الحديث لا يلبث أن ينقطع بانتهاء تلك الشذرة الضئيلة ، ولا يستطيع الباحث أن يعثر على صلة فى الشذرات الأخر بهيئة تطمئنه ، فلا يسعه إلا أن يذعن للنتيجة الواقعية التى أحدثتها أيدى البلى بهذه القصيدة ، وأن يكتفى بإعلان الأسف على فقدها وحرمان العالم الحديث نعمة محتوياتها النفيسة .

و إذا لم يكن لنا بد من أن نعقب على هذه القصيدة بشىء ، فقد نرى لزاماً علينـا أن نسجل هنا أن مؤلفها يشـبه مؤلف الثيوغونيا فى الـكلف بالنظـام والضبط وتوخى الدقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومن مميزاته أيضاً أنه منعطف بفطرته نحو القَصص الساطع الموجز كذلك اللون الفاتن الذى نلتقى به فى إحدى شذرات القائمة والذى يعنى بتصوير حملة أرجونوتيه[2] .

على أنه لا ينبغى أن يفوتنا قبل مغادرة هذه القصيدة أن نشير إلى أن أحد الأدباء فى عصر غير معروف بالضبط قد قسمها إلى أربعة أقسام ، بينما أن فريقاً آخر من المشتغلين بالأدب فى العصور القديمة قد أثبتوا أن القسم الرابع ليس منها ، و إنما هو قصيدة مستقلة ، وهى خاصة بإحصاء النساء البشريات اللواتى عشقهن الآلهة ، ولم يبق لنا مع الأسف منهن سوى خمس ،

---

(1) Frag., 1-3-7, édition Rzach, Leipzig, 1902

(٢) حملة الأرجونوتيه هى تلك الحملة الشهيرة فى تاريخ الأساطير الهيلينية والتى تألفت من خمسين بطلا من أبطـال الهيلين كيازون ، وهيركليس ، وكستور ، وپوليدكليس ، وأرفيثوس ، وتيلامون وأضرابهم والتى أبحرت على سفينة أرجو بقصد الاستيلاء على الجزة الذهبية .

وهن : (١) ألكمينيه «Alcménè» وهى زوجة أنفِتْريون ملك ثيبا ، وقد أحبها زوس وأنجب منها هيركليس . (٢) كرونيس Coronis ابنة الملك ملجيوس وقد عشقها أپولون وأنسل منها أسْكِلِپْيوس Asclépios إلاه الطب ، وقد ذكره العرب فى كتبهم الطبية كثيراً.

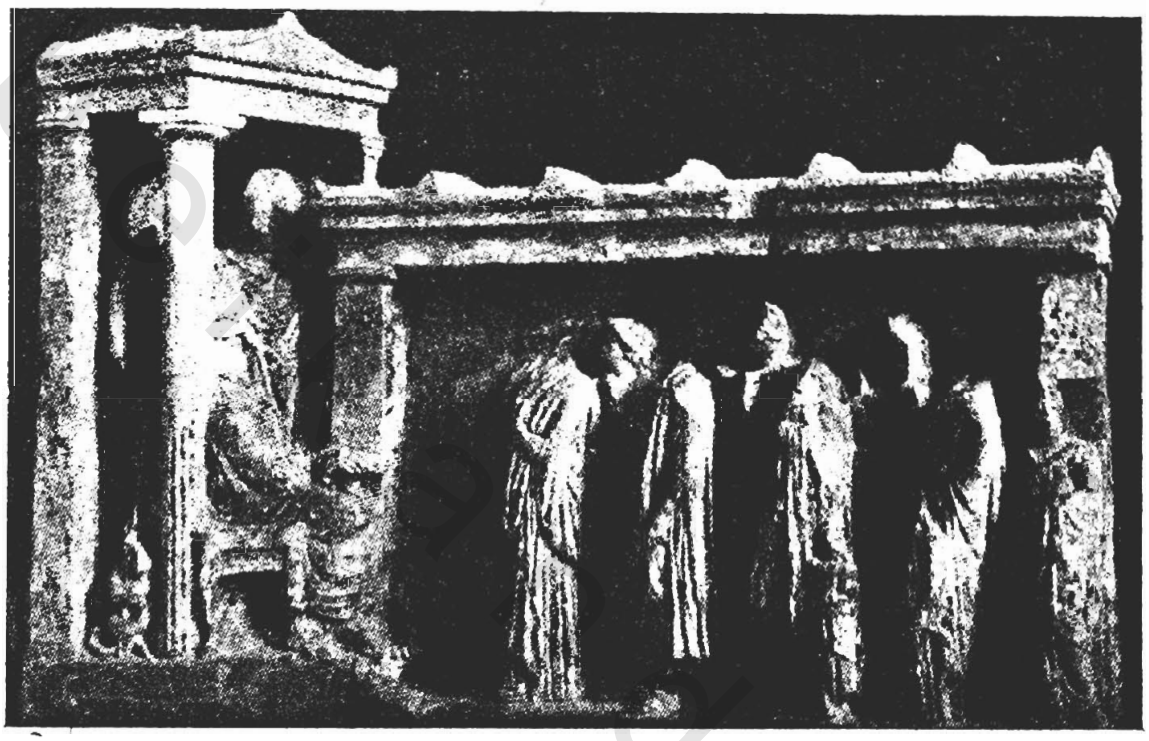

[ألصورة رقم ٢٣ مأخوذة عن رسم بارز يرجع تاريخ صنعه إلى القرن الرابع قبل المسيح ويوجد الآن فى المتحف الوطنى بأثينا ، وهى تمثل موكباً من الضارعات متجهاً إلى معبد أسكلپيوس إلاه الطب ، ويرى فى الصورة كذلك أسكلپيوس جالساً فى معبده وعلى مقربة منه ابنته هجييه إلاهة الصحة]

(٣) أنتيوپيه Antiopè وهى ابنة نِكْتيوس ملك ثيبا ، وقد أغرم بها زوس . (٤) مِكْيونيكيه ، وقد تدله فى غرامها پوسيذون . (٥) كيرينيه Kirénè وقد وله فى حبها أپولون ونقلها إلى لبيا ، وباسمها سميت مدينة كيرينا التى نطقها العرب قورينا ونسب إليها الفلاسفة القورينائيون .

(ح) ترس هيركليس

تعتبر هذه القصيدة ضمن القصائد التى شغلت الأدباء فى عصرها ، ولكن ذلك لم يكن لقيمتها الأدبية ، بل لشهرة عنوانها وأهمية الموضوع الذى عرضت له ، وعدد أبياتها

أربعمائة وثمانون بيتا ، وقد بقيت كلها ، ولـكن النقاد المحدثين يميلون إلى أن الأربعة والخمسين بيتاً الأول منهـا هى مؤلف قائمة النساء البشريات اللواتى أحبهن الآلهة ، وهى القائمة التى أسلفنا الحديث عنها ، والتى ألحقها البعض بقائمة الأبطال وعزاها إلى هزيودوس .

وأيا ما كان فإن هذه المقطوعة الأولى من ترس هيركليس هى التى تحوى — كما فى القسم الرابع من القائمة العامة — أسطورة « كلف زوس بألـكمينيه » إذ تحدثنا كيف أن أنفِتْريون وزوجته ألـكمينيه تضطرهما ظروف خاصة إلى الالتجاء إلى ثيبا حيث يندلع غرام زوس بهذه الزوجة الفاتنة وكيف يرتحل زوجها ثم يعود وكيف تلد التوءمين هيركليس من زوس ، وشقيقه أُرِستيوس من زوجها أنفِتْريون .

وعلى أثر انتهاء هذه الأسطورة يحس القارئ أن الأسلوب قد تغير فجـأة فهوى إلى الحضيض ، إذ ينتقل بنا المؤلف إلى إنشاء ضئيل القيمة منحط المستوى ، والموضوع الظاهرى الذى اتخذه هذا الشاعر لإنشائه ، هو معركة هيركليس وكِـكْنوس بن أريس الذى عطل القرابين المعدة لمعبد أبولون فى ذِلفيه ، ولـكن المؤلف كان يرمى فى الحق إلى وضع وصف لترس هيركليس يشبه وصف الإلياذة لترس أخيلوس ، فجـاء ذلك الوصف محاكاة سخيفة لايمكن تشبيهها بالأولى إلا لبيان دمامتها وقبحها إلى جانب حسن وصف هوميروس ودقته .

(د) قصـائد مختلفة

ظهرت فى هذا العصر عدة قصائد تاريخية مختلفة لايعرف مؤلفوها ، فنسب القدماء بعضها إلى هزيودوس ومن أشهرها قصيدة عنوانها :

المِيلَمْبوسية

وهى نسبة إلى ميلَمْبُوس الإلاهى الذى هو بطلها الأساسى وإن كنا نجد فيها إلى

جانب اسمه أسماء كثيرين من أبطال العصور القديمة كأسماء العرافين الثلاثة : كلخاس ، وتيرسياس ، وأمفيلوخوس .

ويحدثنا بعض القدماء أن من بين محتويات هذه القصيدة قصة تصور لنا زوس ، وهيريه يستلهمان أنباء الأقدار من تيرسياس العراف . ولا ريب أن هذه آية من آيات انحطاط العقلية وإسفاف مستوى فهم الأساطير فى ذلك العهد ، وإلا فكيف ينحط زوس إلى حد الجهل بالأقدار واستلهامها من أحد الأناسى العرافين الذين هم صنيعة يده ، والذين ليس ماعندهم من عرفان إلا بصيصاً من وحى ابنه أبولون .

غير أن هذا السخف لايمنعنا من أن نعلن أن فى هذه القصيدة أبياتاً لاتخلو من حسن ورشاقة كتلك الأبيات التى يناجى فيها تيرسياس زوس متضجراً من طول حياته ومن معرفته بالأقدار فيقول :

« زوس أيها الوالد والمليك ! لماذا لم تمنحنى حياة أقصر من حياتى ؟ ولماذا لم تعطنى نصيبى من الجهل الإنسانى ؟ ليست هذه حظوة تلك التى حبوتنى بها بمنحك إياى هذه الحياة الطويلة التى بلغت سبعة أجيال من أجيال الفانين[1] .

نزول ثِسْيوس إلى الجحيم

ومن هذه القصائد أيضاً قصيدة نزول ثِسْيوس عند « هاديس » التى يروى فيها مؤلفها كيف نزل ثِسْيوس إلى الجحيم ، ثم يقدم إلينا قائمة يسرد لنا فيها أسماء مشاهير موتى الهيلين وشيئاً عن أنسابهم وأسَرِهِمْ ، فيذكرنا بالقائمة العظمى التى أسلفنا لك أنها فقدت .

---

(1) M. Croiset , Histoire de la Littérature grecque, tome, p.572 .

هناك كثير من القصائد الأخرى ظهرت فى هذا العهد بقى بعضها كاملا ، وفقد بعضها الآخر فلم يبق منه إلا عناوينه أو شذرات ضئيلة منتثرة غير كافية لإعطائنا فكرة واضحة عنها وعن مؤلفيها ، ولكن الذى نستطيع أن نقرره فى هذا الشأن بوجه عام هو أن هذه القصائد كلها كانت ضئيلة القيمة ، منحطة المستوى لاتؤذن بمواهب مؤلفيها ، ولا تشعر القارئ بأنهم من الممتازين . ولهذا لم يكد التاريخ يخطو فى طريق الرقى خطاه الواسعة حتى تدل على هذه المنتجات الضعيفة ستار النسيان .

obeikandl.com